

هل تلزم التوبة والاعتراف للكاهن؟

سؤال من:

الآنسة ب. ر. - الموصل - العراق

السيد ك. ب. - بغداد - العراق

السيد أ. ل. - دمشق - سوريا

أولاً: التوبة

التوبة أمر لا بد منه للمصالحة مع الله، وفقاً للقول الإلهي: «لِيَتْرَكَ الشَّرِيرُ طَرِيقَهُ وَرَجُلُ الْإِثْمِ أَفْكَارَهُ، وَلِيَتَّبِعْ إِلَى الرَّبِّ فَيَرْحَمَهُ وَإِلَى إِلَهِنَا لِأَنَّهُ يُكثِرُ الْغُفْرَانَ» (إشعياء ٥٥: ٧).

وهذه الوصية الإلهية تكررت على لسان الرب يسوع نفسه إذ قال: «تُوبُوا وَآمِنُوا بِالْإِنْجِيلِ» (مرقس ١: ١٥). وبهذه الوصية جمع المسيح الإيمان والتوبة وما جمعه المسيح يجب أن لا يفرقه إنسان.

التوبة تحي الإيمان والإيمان يبعث التوبة، وطاعتنا لوصايا الله هي التي تبرهن على إخلاصنا في كل منهما. هكذا بدأت الكرازة بالإنجيل وهكذا يجب أن تستمر «تُوبُوا وَآمِنُوا».

والمناداة بالتوبة، كانت من أهم المواضيع التي كرز بها الرسل. فقد قال بطرس: «تُوبُوا وَلِيَعْتَمِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِيُغْفَرَ لِيُخْطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدْسِ» (أعمال الرسل ٢: ٣٨).

وقال بولس: «فَاللَّهُ الْآنَ يَأْمُرُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا، مُتَغَضِباً عَنْ أَرْمَنَةِ الْجَهْلِ» (أعمال الرسل ١٧: ٣٠).

في الواقع أن الرجوع إلى الله لا يتم إلا بالإيمان والتوبة. فالإيمان هو نظر النفس المتجددة إلى الله وقبول شهادة الكتاب المقدس به، والاتكال على النعمة الإلهية كما هي معلنة في عمل الفداء. والتوبة هي نظر النفس المتجددة إلى الخطية بالحزن والخجل مع التصميم على تركها وإتمام المغفرة والخلاص بدم الفادي، اقتناعاً كافياً. وهذا الاقتناع يستلزمنا ثلاثة أمور:

١. التسليم بكوننا خطاة: هذه الحقيقة أدركها داود ابن يسي فكتب لنا اعترافه الرائع: «لَأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيٍّ وَخَطِيئَتِي أَمَامِي دَائِماً. إِلَيْكَ وَحَدَاكَ أَخْطَأْتُ وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ... طَهَّرْنِي بِالرُّوفَا فَاطْهَرِ. اغْسِلْنِي فَأَبْيَضُ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ... لَا تَطْرَحْنِي مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ، وَرُوحَكَ الْقُدُّوسَ لَا تَنْزِعْهُ مِنِّي» (مزمو ٥١: ٣-١١).

ولكن هذا التسليم ليس إلا جزءاً من التوبة الحقيقية. فلا يستطيع وحده أن يقود الإنسان إلى ترك الشر. بل لعله يجعله أحياناً يخاف القصاص. هذا التسليم يُدعى في الكتاب المقدس «معرفة الخطية» بدليل قول الرسول بولس: «بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةٌ الْخَطِيئَةِ» (رومية ٣: ٢٠).

٢. الحزن والأسف على الخطية: لأنها التعدي على شريعة الله وحقه وجودته. لذلك وجب كرهها، والندم عليها. وقد سُمي هذا الحزن في الكتابة المقدسة، بالحزن الذي يُنشئ توبة للخلاص بلا ندامة (٢كورنثوس ٧: ٩-١٠).

٣. ترك الخطية فعلاً: يجب ترك الخطية، كمقدمة لطلب الغفران والتطهير، كما فعل داود حين قال: «ارْحَمْنِي يَا اللَّهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ. حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ أَمْحُ مَعَاصِيَّ. اغْسِلْنِي كَثِيراً مِنْ إِثْمِي وَمِنْ خَطِيئَتِي طَهِّرْنِي» (مزمور ٥١: ١ و ٢).

في الواقع أن التوبة الحقيقية لا تتم بالتسليم العقلي بخطايانا فقط، ولا بمجرد الحزن عليها، بل بالعدول عنها وتركها، وطلب النعمة الإلهية للتخلص منها.

ويجب أن نذكر أن التوبة ليس لها استحقاق لأنها واجبة علينا في كل حين، ولا تفيد شيئاً في الخلاص إن لم تقترن بالإيمان الحي والاتكال على ذبيحة المسيح. والمسلم به أن مركز التوبة هو القلب، لأن عملها داخلي في الإنسان لا خارجي، وإنما تظهر في السيرة الخارجية، كالاقرار أمام الله بخطايانا (لوقا ١٨: ١٣) وإصلاح ما عملناه من الشر (لوقا ٩: ٨) وظهور الثمار التي تليق بالتوبة (متى ٣: ٨).

والتوبة الحقيقية ترافق الإيمان الحقيقي فلا نحزن على الخطية كأمر مكروه وحسب، بل يجب أن نؤمن بالله ونرجو رحمته.

جاء في الإقرار الوستمنستري: إن التوبة للحياة نعمة إنجيلية. ويجب على كل من خدم الإنجيل أن يركز بوجوبها، كما يركز بوجوب الإيمان بالمسيح. وبهذه النعمة يأسف الخاطئ على خطاياها ويكرهها بنظره ليس بالنظر إلى خطر الخطية فقط، بل أيضاً بالنظر إلى نجاستها وسماجتها. ويشعر بذلك في مضادة الخطية لطبيعة الله المقدسة، وشريعته البارة. ويتمسك برحمة الله في المسيح للتائبين، حتى يرجع عن خطاياها كلها إلى الله، قصد أن يسلك معه في كل طرق وصاياه. ويبذل جهده في ذلك... (الإقرار بالإيمان ١٥: ١-٢).

ثانياً: الاعتراف

تعتبر بعض الكنائس أن الاعتراف للكاهن، هو سر من أسرار الكنيسة. ولكن حين نتأمل التعليم الإلهي في الإنجيل، نرى أن أسرار العهد الجديد كما مارسها كنيسة المسيح من أقدم

عصورها، كانت تقتصر على سرين فقط. وهما المعمودية والعشاء الرباني. وهما السران الوحيدان، اللذان رسمهما الرب يسوع، وأوصى أن تمارسهما الكنيسة.

أما الاعتراف للكهنهه الذي تفرضه بعض الكنائس، فلم يكن ملزماً قبل المجمع اللاتراني الرابع ١٢١٥ بعد الميلاد. وذلك بناء على توصية من البابا أنوسانت الثالث. ثم تثبت سنة ١٥٥٠ بعد الميلاد في مجمع تريدينتا، وجُعل سرّاً من أسرار الكنيسة.

من هنا يتضح أن الاعتراف لم يكن يوماً وصية أعطهاها المسيح لشعبه، كما ذكرت في مكتوبك. ولهذا السبب حين قام الإصلاح الديني لم تعتبره غالبية الكنائس الإنجيلية سرّاً. وبالتالي لم تدرجه في تعاليمها.

ويقيناً أن الاعتراف كما تمارسه بعض الفئات المسيحية ليس فقط غريباً عن روح الإنجيل. بل إنه يلحق أضراراً بالغة بالنفوس، للأسباب التالية:

١. لأنه يفترض في كل كاهن تقليدي أن يحمل في منطقتة مفاتيح الكنيسة المنظورة على الأرض، ومفاتيح الفردوس في السماء. فهذا السلطان تفرد به المسيح وفقاً للقول الإلهي: «الَّذِي يَفْتَحُ وَلَا أَحَدٌ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلَا أَحَدٌ يَفْتَحُ» (رؤيا ٣: ٧).

٢. لو سلمنا جدلاً بوجود الاعتراف للكاهن، لكان في ذلك خروجاً على إيماننا بذبيحة المسيح الكفارية التي قدمها المسيح عنا، والتي هي أساس الغفران، وليس «حلة الكاهن».

٣. لو كانت الخطية التي يعترف بها المذنب ضد الكاهن نفسه لكان الأمر جائزاً. وفقاً لقول الرسول يعقوب: «اعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالزَّلَّاتِ» (يعقوب ٥: ١٦) ولكن الخطايا تُرتكب ضد الله. فداود مع أن خطيته كانت ضد أوريا الحثي وضد زوجته وضد شرفه، قال في صلاة اعترافه للرب: «إِلَيْكَ وَحَدَاكَ أَخْطَأْتُ وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ» (مزمور ٥١: ٤) ولذلك لأجل غفران الخطايا يجب اللجوء إلى دم المسيح الذي نبشر به ونعلن الخلاص بواسطته.

وقال في مزمور آخر: «أَعْتَرِفُ لِلرَّبِّ بِذَنْبِي وَأَنْتَ رَفَعْتَ أَثَامَ خَطِيئَتِي» (مزمور ٣٢: ٥). وما دامت الخطايا كلها مرتكبة ضد الله، فلا معنى للالتجاء إلى وسيط غير الوسيط الوحيد بين الله والناس: «الْإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بَدَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لِأَجْلِ الْجَمِيعِ، الشَّهَادَةُ فِي أَوْقَاتِهَا» (١ تيموثاوس ٢: ٥ و٦).

٤. ليس من سلطان للبشر على مغفرة الخطايا، لأنه من اختصاص الله في المسيح يسوع، الذي هو رئيس كهنة العهد الجديد؟ إذ نقرأ في الرسالة إلى العبرانيين: «لَأَنَّ

كُلَّ رَيْسٍ كَهَنَةٍ مَأْخُودٍ مِنَ النَّاسِ يُقَامُ لِأَجْلِ النَّاسِ فِي مَا لِلَّهِ، لِكَيْ يُقَدِّمَ قَرَابِينَ وَذَبَائِحَ عَنِ الْخَطَايَا، قَادِرًا أَنْ يَتَرَفَّقَ بِالْجُهَالِ وَالضَّالِّينَ، إِذْ هُوَ أَيْضًا مُحَاطٌ بِالضَّعْفِ. وَلِهَذَا الضَّعْفُ يُلْتَزِمُ أَنَّهُ كَمَا يُقَدِّمُ عَنِ الْخَطَايَا لِأَجْلِ الشَّعْبِ هَكَذَا أَيْضًا لِأَجْلِ نَفْسِهِ. وَلَا يَأْخُذُ أَحَدٌ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ بِنَفْسِهِ، بَلِ الْمَدْعُوُّ مِنَ اللَّهِ، كَمَا هَارُونُ أَيْضًا. كَذَلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضًا لَمْ يَمَجِّدْ نَفْسَهُ لِيَصِيرَ رَيْسَ كَهَنَةٍ، بَلِ الَّذِي قَالَ لَهُ: «أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ». كَمَا يَقُولُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الْأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلِكِي صَادِقٍ»... مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ. وَإِذْ كُتِبَ صَارَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ سَبَبَ خَلَاصٍ أَبَدِيٍّ» (عبرانيين ٥ : ١-٩)

فالذي آمن بالمسيح وتاب عن خطاياه، وأطاعه واتكل على ذبيحته لغفران خطاياه ليس في حاجة إلى وسيط آخر بين الله وبينه.

٥. إن الآيات التي يبنى عليها البعض تعليم الاعتراف للكهنه مأخوذة على الغالب من إنجيلي يوحنا ومتى ورسالة يعقوب. ولكن كل من تأمل هذه الآيات بعمق يرى أنه لم يقصد بها الاعتراف الخصوصي للكاهن بل التوبة والاعتراف لله، اللذان بدونهما لا يمكن نوال الغفران وبالأخص يفهم من قول الرسول يعقوب: «اغترفوا بعضكم لبعض بِالزَّلَّاتِ» (يعقوب ٥ : ١٦) إن الاعتراف المقصود يجب أن يكون متبادلاً. لا اعترافاً سرياً للكاهن.

والواقع أن آباء الكنيسة الأولين مثل باسيليوس الكبير ويوحنا فم الذهب وغيرهما يعلمون صريحاً أن الاعتراف يجب أن يكون لله وحده، لا لأحد من الناس مطلقاً (اقرأ تأملات باسيليوس في المزمور ٣٧، وعظة يوحنا فم الذهب الحادية والثلاثين).

البرهان على بطلان هذا الاعتقاد

١. إن هذا الاعتقاد لا يؤيد أي شاهد واحد في الكتاب المقدس وكل ما هنالك أنه قصد به الاحتفاظ بسر كنسي غير محدود للتسلط بالحل والربط، ومن غير قيد ولا شرط.
٢. لأن القصد منه تأييد الادعاء بالخلافة الرسولية. الأمر الذي لم يرد ذكره في الكتابات المقدسة. فالرسل كان عددهم معيناً، وقد اختارهم المسيح ليشهدوا لتعليمه ولحياته وموته وقيامته. ولكي يكونوا كذلك، وجب أن يكونوا قد عاينوا المسيح بعد قيامته، وأن يكونوا ملهمين من الروح القدس، لكي يكونوا معصومين في تعليمهم. وأن يصادق الروح القدس على رسالتهم بتأييدها، وأنهم منحو من الله المواهب الروحية المتنوعة

وإجراء العجائب. وقد اجتمعت كل هذه الصفات في أولئك الرسل الحقيقيين، من دون غيرهم. فبولس مثلاً لما بدأ بممارسة وظيفته الرسولية، بيّن أنه مرسل من قبل يسوع المسيح (غلاطية ١ : ١) وأنه لم يتعلم الإنجيل من الآخرين بل بإعلان مباشر من الرب يسوع (غلاطية ١ : ١٢) وأنه رأى الرب الفادي بعد قيامته (١كورنثوس ٩ : ٢١، ١٥ : ٨) وأن الرب شهد لصحة رسوليته وخدمته، كما شهد لصحة خدمة بطرس (غلاطية ٢ : ٢٨) وأنه عمل كل أعمال الرسول من عجائب وآيات (٢كورنثوس ١٢ : ١٢).

أما بعض رؤساء الكنائس فيدّعون السلطان الرسولي، دون أن تكون لهم مواهبه. مثلهم كالذي يدّعي النبوة، من غير أن تكون له مواهب النبي.

٣. يظهر من الإنجيل أن وظيفة الرسل كانت غير قابلة للانتقال والتسلسل. وليس في نصوص الإنجيل ما يؤيد استمرارها، خلافاً لغيرها من الوظائف الكنسية، التي لها بينات على دوامها، كالأمر بإقامة رعاة، وشيوخ وشمامسة وتعيين الصفات الواجب أن تتوفر فيهم.

٤. إن الرسل لم يدّعوا استعمال السلطان والقدرة على منح الروح القدس في الخلاص والتقدّيس، كما تدّعي بعض الكنائس أن لرؤسائها سلطاناً فوق سلطان الرسل، بل فوق سلطان رؤساء الملائكة.

أما الآية التي يستند إليها القائلون بأن للكهنة سلطاناً أن يغفروا الخطايا فهي: «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكْتُمْ» (يوحنا ٢٠ : ٢٣) ولكن هذا لا يعني أن الله غافر الذنب أعطاهم سلطانه في غفران الخطايا، فهو القائل: «أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبِكَ لِأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لَا أَدْكُرْهَا» (إشعيا ٤٣ : ٢٥) وكل ما هنالك أن الرسل بعدما أعطاهم الرب الروح القدس، أوكل إليهم أن يعلنوا الشروط التي عيّنها للغفران، وهي شروط الإنجيل للخلاص. فكل من يقبلها تُغفر له خطاياه، وكل من يرفضها تُمسك خطاياه.

وقد حرص الرسل على أن يذكرها هذه الشروط صراحة. فقد قال بطرس: «وَأَوْصَانَا أَنْ نَكْرِرَ لِلشَّعْبِ، وَنَشْهَدَ بِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعِينُ مِنَ اللَّهِ دَيَانًا لِلأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ. لَهُ يَشْهَدُ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ يَنَالُ بِأَسْمِهِ غُفْرَانَ الْخَطَايَا» (أعمال الرسل ١٠ : ٤٢ و ٤٣).

وقال بولس: «وَنَحْنُ نُبَشِّرُكُمْ بِالمَوْعِدِ الَّذِي صَارَ لِأَبَائِنَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْمَلَ هَذَا لَنَا نَحْنُ أَوْلَادَهُمْ، إِذْ أَقَامَ يَسُوعَ فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ الْإِخْوَةُ، أَنَّهُ بِهِذَا يُنَادِي لَكُمْ بِغُفْرَانِ الْخَطَايَا» (أعمال الرسل ١٣ : ٣٢ و ٣٣ و ٣٨).